

ابن عربي (محي الدين) والمرأة

Ibn al-Arabi (Muhial-Din) and woman

د. بلحمم نجاة*

كلية العلوم الاجتماعية- جامعة وهران 2 - الجزائر

تاريخ النشر: 2018/12/31

تاريخ القبول: 2018/12/28

تاريخ الإرسال: 2018/10/18

الملخص:

تشكل المرأة في حياة وتجربة ابن عربي الصوفية محورا رئيسيا للكتابة الصوفية التي تترجم من خلالها علاقة ابن عربي بالمرأة سواء المرأة الحبيبة الظاهرة في الشعر الصوفي أو المرأة الزوجة الحاضرة في مسار تحقيق التجربة الصوفية بمقاماتها وأحوالها أو المرأة المتصوفة أو العابدة من خلال تأسيس المفاهيم الصوفية، وابن عربي فضاء تجسدت من خلاله تمثيلات المرأة ومكانتها الوجودية.

الكلمات المفتاحية: ابن عربي؛ المرأة؛ الأنوثة؛ الجمال؛ الحب الإلهي

Abstract :

Women form the life and experience of an Ibn Arabi's Sufism is the main focus of Sufi writing, which translates the relationship of an Arab son to women, whether the beloved woman phenomenon in the mystical poetry or wife wife present in the course of the realization of the Sufi experience positions and conditions or women Sufis or worshiper through the establishment of Sufi concepts, And the son of an Arab space embodied by the representations of women and their existential status.

Keywords: Ibn Arabi ; Woman ; Femininity ; Beauty ; Devine love.

مقدمة:

يمثل ابن عربي روح التصوف، كونه دائرة معارف كبرى تشمل جوهر ما وصل إليه الفكر العربي الإسلامي في القرن السابع الهجري في مجالات كثيرة: علم الكلام والفلسفة والفقه والأدب والعلوم... ويعدّ هذا المتصوف أهم من تحدث عن المرأة في حقل التجارب المعرفية الإنسانية، وأيضا أهم من صاغ طبيعة العلاقة بين المرأة والرجل، فهما يشكلان محور الوجود، وتفسير العلاقة بين الحق والخلق عند ابن عربي هو ما

* الباحثة المرسلة: belhamamenadjette@yahoo.com / مختبر الأبعاد القمية للتحويلات الفكرية والسياسية بالجزائر

يؤسس لحديثه عن المرأة في مواضيع كثيرة في (الفتوحات المكية) وفي (فصوص الحكم) خاصة في الفصل السابع والعشرين. غير أن ما يمكن التأكيد عليه أن فكر ابن عربي حول المرأة يتبلور من خلال علاقته بنماذج كثيرة من المرأة: نموذج المرأة الحبيبة (النظام) ونموذج المرأة الزوجة (مريم) ونموذج المرأة العابدة أو المتصوفة (رابعة العدوية) فكيف تتمظهر إذاً علاقة ابن عربي بهذه التمثيلات النسوية؟

المرأة في الخطاب الصوفي:

يتميز الخطاب الصوفي في حديثه عن المرأة وعن الأنوثة في اعتباره هذه الأخيرة ليست مجرد كينونة منفردة ترتبط بشخص محدد (هو المرأة) ولكنها عبارة عن مبدأ كلي يساهم بشكل مباشر في الحياة الكلية أو الكونية، هي جوهر الحياة.

والعلاقة بالمرأة في الخطاب الصوفي الإسلامي- خاصة المتأخر منه- محكومة بنفس العناصر التي حكمت العلاقة بالألوهية والطبيعة، أهم هذه العناصر:

-الحس الجمالي والحس التراجيدي، وهذه العناصر تبدو أكثر قوة في الحب الصوفي للمرأة، فهذه الأخيرة أكثر قرباً ونفاذاً في شخصية الصوفي، بقدر ما كانت تفتحه أيضاً على الألوهية من جهة وعلى الطبيعة من جهة أخرى، ولا تقف العلاقة بالأنثى عند هذا الحد، بل ستفتح العاشق الصوفي على عنصر الإبداع والكتابة، لذا يصعب عرض صورة المرأة عند الصوفي من أمثال ابن عربي خارج مفاهيم الطبيعة والألوهية والتزعة الايروتيكية. فقد حاول الحب الصوفي أن يخرج بصورة المرأة من حدود تصورات العديد من الفقهاء ومؤلفي الكتب الجنسية التي كانت متداولة في الثقافة العربية الإسلامية قديماً والتي اختزلت المرأة في عنصر الجنس وحاولت انطلاقاً من ذلك تطويق الجسد الأنثوي بمجموعة من القيم الأخلاقية التي تقيده أكثر مما تعطيه إمكانية التفتح على الحياة.

فالمرأة في النصوص الصوفية هي المظهر الأعلى للحياة، بل هي مبدأ الحياة الإنسانية، من هنا كانت العلاقة بالمرأة تجدد العلاقة بالألوهية وبالطبيعة، أي بالحياة ومبدأ الحياة: أي الماء والحب.

إن المرأة في صورتها الوجودية الخاصة هي تكثيف للجمال الكوني وليست مجرد جسد يخضع لمنطق الرغبة الجنسية، فهي بالنسبة لجلال الدين الرومي قبس من النور الإلهي.

يصعب عند المتصوفة الفصل بين حب الألوهية وحب الطبيعة، وبين حب المرأة، فحب المرأة ليس حبا محدودا بوجودها الخاص، ولكنه يقصد استقصاء السر الغائب وراء أنوثتها، ولا يمكن أن يدرك ذلك السر إلا العاشق الصوفي الذي يجعل من الحب حركة انفتاح على كل مظاهر الكون والعالم، والتجليات الإلهية، يقول ابن عربي: "وليس في العالم المخلوق أعظم قوة من المرأة لسر لا يعرفه إلا من عرف فيم وجد العالم وبأي حركة أوجده الحق تعالى".¹

إن حب الصوفي للمرأة ليس حبا انفعاليا، وهذا يعني أنه ليس فقط علاقة إنسانية تجمع بين شخصين فحسب، بل هو جزء من حركة ايروتيكية كونية تربط العاشق الصوفي بمجالات وجودية، وإن كانت مظاهر هذه الحركة الإيروتيكية مختلفة: فالمظهر الأسى للحب الإلهي والطبيعي والسياحة والاعتراب الاجتماعي والافتنان بمشاهد الجمال الإلهي والطبيعي، أما المظهر الأسى للحب الصوفي للمرأة فهو الفعل الجنسي، غير أن هذا الأخير لا يخضع عند الصوفية لنفس المنطق الذي يحكم التصور الفقهي والتصور الجنساني، وهو منطق العنف على الأنثى وتكريس سلطة الذكورة والنظام الاجتماعي الذي يتأسس عليها.

إن الفعل الجنسي الذي يحكم حب الصوفي للمرأة ليس مجرد حركة جسدية تخضع لإيقاعات الرغبة، إنه استجماع لعناصر الافتنان والعبادة، انه فعل مركب يجمع بين العناصر التي تشد الإنسان إلى الألوهية والطبيعة وإلى مبدئيهما: أي الحياة والحب.

إن حب المرأة عند الصوفية المتأخرين يرتبط بنظريتهم الجمالية للكون والطبيعة، وصورة المرأة في الشعر الصوفي بقدر ما تفتح الجسور أمام الإنسان لدخول عالم الألوهية والجمال المطلق، بقدر ما تنزل به أيضا إلى الجذور البدائية للحياة: جذور الجسد والجذور الانفعالية للإنسان التي تشده إلى الطبيعة بكل مظاهرها.

إن المرأة هي الصورة النموذجية التي يتحقق فيها الارتباط بين الألوهية والطبيعة، بين المتعة والعبادة، بين المقدس والمدنس، بين ايروتيكية الجسد وايروتيكية المقدس.

إن الذكورة والأنوثة لا يكونان ماهيتين منفصلتين على بعضهما البعض في التصور الصوفي خلافا للكتابات الفقهية والجنسانية، إنهما فقط عنصران لجسد واحد هو الجسد الأصلي، جسد ادم، الإنسان الكامل الذي خلق في بداية النشأة.

¹ - ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 2، دار صادر، بيروت، ص 466.

والإحساس التراجيدي بالانفصام الوجودي للإنسان هو الذي يحرك أيضا حب الصوفي للمرأة. وما يقصده الفعل الجنسي لديه هو الالتحام بالعنصر الآخر، لأنه يمثل- داخل رمزية الايروتيكية الصوفية المعقدة- العودة إلى الحالة الأصلية للجسد البدائي الذي ليس هو جسد ذكوري خالص ولا هو أنثوي خالص، بل هو مقولة ثالثة تجمع بشكل خفي بين الذكورة والأنوثة.

إنه الجسد الذي تذوب فيه كل من الذكورة والأنوثة، وبالتالي يختفي فيه الفعل الجنسي طالما أن شرط هذا الفعل هو الانفصال، إنه الجسد البرزخي (الجسد الكامل) الذي يجمع بشكل مفارق بين خاصيتي الذكورة والأنوثة ويؤلف بينهما.

ولعل هذا الطرح- في تصور الصوفية- فعل يهدد جوهر الثقافة الاجتماعية التي تقوم على إثبات هوية الذات الفردية لكل من الذكر والأنثى كماهيتين منفصلتين كوسيلة لتثبيت العلاقات الاجتماعية بينهما، وهي في الحقيقة علاقات غير قائمة على التكافؤ، بل على مبدأ السلطة والسيطرة لقد رأى " لوي التوسير" في كتابه: الايديولوجيا والأجهزة الإيديولوجية للدولة – ضمن كتابه: مواقف-

إن مفهوم الذات الفردية هو الذي يؤسس كل إيديولوجيا اجتماعية كيفما كان تحديدها الطبقي أو الإقليمي أو الزماني¹.

إن حب الصوفية للمرأة يهدد صورة الحب الجنسي كما تحددها الثقافة الإسلامية الكلاسيكية، خصوصا الفقهية والجنسانية، لهذا ارتبطت حركة الحب عند الصوفية المتأخرين بحركة الاغتراب الاجتماعي، هذا الربط يجعل الحب الصوفي ينتقل من كونه علاقة إنسانية يومية أو علاقة بالالوهية الى كونه تجربة متفردة تنزع بذاتها نحو الأسطورة.

في هذا السياق ترجم "ابن عربي" الحب للمرأة، فكثير من آرائه نجد لها التجسيد الفعلي في سيرة حياته وفي سلوكاته، وهذا هو المتصوف المتحقق، وموضوع المرأة وحيا هو ما يجسد فعلا تطابق فكر ابن عربي مع وجوده، فسيرة حياته تدل على أنه أحب النساء وتزوجهن، فقد أحب المرأة بما يقربه من الله وهو الحب الذي يكون على الصفة المذكورة سابقا والتي تمكن المرء من إدراك التجلي الإلهي فيها.

-1 Louis Althusser : Idiologie et Appareils idéologiques d'état- in : Positions-Paris- Editions sociales- 1976 P 110-111.

تمثيلات المرأة في فكر ابن عربي :

يمكن الكشف عن علاقة ابن عربي بالمرأة حسب كل الدراسات التي قدمت حول فكره من خلال مسارين: مسار علاقته بالمرأة الحبيبة والمرأة الزوجة ومسار علاقته بالمرأة العابدة. إذا: النظام ومريم ورابعة العدوية.

1. ابن عربي والنظام: حب العابد والمتصوف للمرأة الحبيبة

تفرد ابن عربي في حبه الشديد ل: "النظام بنت الشيخ مكين الدين الأصماني" وخصها بأشعار رمزية خاصة في ديوانه (ترجمان الأشواق).

إن أهم ملامح تلك الفتاة التي أحبها ابن عربي حبا عميقا تظهر في تجربته العرفانية، وقد عرفها عندما سافر إلى مكة، والتقى بالشيخ مكين، زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الأصماني، ومن الواضح أنه من أصل فارسي. كانت له ابنة شابة اسمها النظام والملقبة ب(عين الشمس)، فائقة الجمال، وعلى قدر وافر من الذكاء والعلم وطيب الخصال. ومن أجلها كتب ابن عربي ديواناً غزلياً كاملاً بعنوان (ترجمان الأشواق) ضمنه حبه الشديد لهذه الفتاة، التي يبدو أنها غادرت مكة إلى نجد، ربما متزوجة من غيره.

يقول ابن عربي في مقدمة الديوان: "فكل اسم اذكره في هذا الجزء فعنها أكتى، وكل دار أندبها فدارها أعنى"¹. ومن الواضح أن حبه لنظام كان حبا عذريا خالصاً، ومع ذلك فإنه أضفى عليها بعض الأوصاف الحسية دون أن يسئ إليها، أو يشوه سمعتها.

ويمكن القول بأن هذه الفتاة الفائقة الحسن، والذكية العقل قد فجرت الطاقة الشعرية لدى ابن عربي، فتفنن في قصائده التي ضمها ديوان (ترجمان الأشواق) حتى أنه فاق في بعض أبياته وقصائده مستوى أشهر الشعراء العرب في هذا المجال.

وإذا كان ابن عربي يقول إنه يكنى عن النظام، فقد صرح باسمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حوالي أربع مرات، بل إنه حددها ببلدها الأصلي، ونسبها، ووالدها في قوله:

ونظام ومنبر وبيان
من أجل البلاد من أصماني
وأنا ضدها سليل يماني
أن ضدين قط يجتمعان²

طال شوقي لطفلة ذات نثر
من بنات الملوك من دار فرس
هيبتن العراق بنت إمامي
هل رأيتم يا سادتي أو سمعتم

¹ - ابن عربي، محي الدين: ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت 1966، ص 24.

² - ابن عربي، محي الدين: ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت 1966، ص 35.

ولا يكاد يخفيان عربي إعجابه الشديد بجمال تلك الفتاة الفارسية من خلال التغني بفمها حين تتكلم أو تبتسم، وبشعرها الأسود الطويل حين ينسدل، وبوجهها الذي يكاد يكسف القمر حين يسفر، ثم بأسلوبها في معاملة المعجب بها، فهي كما يقول:

تصد جدا، وتلهو بالهوى لعبا

والموت ما بين ذاك الجد واللعب¹

وعندما يجتمع بياض بشرتها مع سواد شعرها الفاحم:

للمشمس غرتها، لليل طرتها

شمس وليل معا من أجمل الصور²

وهو يعترف بوقوعه كاملاً في غرامها، وأن هذا الغرام سيؤدي إلى مقتله، ولأنها فائقة الجمال، فقد أبعدت العاذلين عن عاشقها:

إن الفراق مع الغرام لقاتي

صعب الغرام مع اللقاء هون³

مالي عذول في هواها إنها

معشوقة حسناء حيث تكون³

أما الأبيات الوحيدة التي يتحدث فيها ابن عربي عن لقاء حسي بتلك الحبيبة، فهو ما كان يحدث عند وداع أحدهما للآخر:

إذا ما التقينا للوداع حسبتنا

لدى الضم والتعنيق حرفاً مشددا

فنحن وإن كنا مثنى شخوصنا

فما تنظر الأبصار إلا موحدًا

وما ذاك إلا من نحولونورها

فلولا أنيني ما رأيتني مشهدًا⁴

ويقول في قصيدة أخرى :

تملكني وتملكته

فكلُّ لصاحبه قد مَلَكْ

فكونيملكاً له بين

وملي له قوله: هيت لك!⁵

يذكر ا. د حامد طاهر في مقاله: مكانة المرأة عند ابن عربي بأن هذا الأخير حاول – نتيجة الأقاويل التي راحت تدور حول مكانته الصوفية، ومشخته للكثيرين – أن يحول الأنظار عن غزله الذي خصصه للنظام، فقام بشرح صوفي متكلف لهذا الديوان، الذي يعد في ميزان النقد الأدبي درة من درر الشعر العربي الجميل. فقد قدم ابن عربي شرحاً على هامش ديوانه (ترجمان الاشواق) والذي الحقه بالديوان بعد مدة غير قصيرة من تأليفه نتيجة تهجمات بعض الفقهاء والمتشددین الذين اتهموه بالزندقة والانحراف عن

¹ - المصدر نفسه، ص 42.

² - المصدر السابق، ص 45.

³ - المصدر السابق، ص 51.

⁴ - المصدر السابق، ص 54.

⁵ - المصدر السابق، ص 56.

المقاصد الاخلاقية للصوفية الاوائل. فالشرح الباطني الذي يقدمه ابن عربي لديوانه جاء بفعل ضغوط ايدولوجية للفقهاء. وهذا مايفسر اعترافه بان مقاصده الحقيقية في شعره مقاصد خفية مخالفة للمعاني المباشرة الظاهرة للديوان.

لقد كانت "نظام المرأة المفضلة عند ابن عربي، قد احتلت موقع المرأة، أي- الواحد – الفرد، والباقيات المذكورات في نصوص ابن عربي، والواضحات النسبة إليه، هن نساء، أي الكثير المتوالي أو المتجاوز"¹.

يتخذ ابن عربي في أشعاره ودواوينه " النظام " نموذجا لمن تجلّى له الحق فيها، فهو ينطلق من جمال المرأة التي احتواه صور الحق إلى الجمال المطلق حيث عين الحق. ويبدو ان اعجاب ابن عربي ب(النظام) لم يكن اعجابا عاديا ولكنه افتتان صوفي بالمعنى الكامل للكلمة. وهو لا يقدمه في مقدمة الديوان الا كنموذج صوفي للمرأة التي تجمع بين الجمال الالهي والحكمة والفتوة بكل خاصياتها. وتلك هي العناصر الاولى للمثال الانثوي لدى الصوفي. لكن ابن عربي لا يقف عند هذه العناصر فقط بل يربط ذلك المثال بالطبيعة والحسن الجسدي الذي يفتح الانسان على الحياة.

عندما نقرأ " ترجمان الأشواق" ندرك مدى حب ابن عربي للنظام التي ألف حولها الشعر محولا إياه إلى فكر وفلسفة صوفية سافر بها في مرآة حبيته إلى عالم المطلق. يقول ابن عربي: "وكان لهذا الشيخ -رضي الله عنه- (ويقصد هنا والد النظام) بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر، وتزين المحاضر والمحاضر، وتحير المناظر، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس والبهاء، من العابدات العالمات السايحات الزاهدات، شيخة الحرمين، ساحرة الطرف، عراقية الطرف، إن أسهبت أتعبت وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت. . . خفة مختومة، واسطة عقد منظومة، يتيمة دهرها، كريمة عصرها. . . فقلدناها من نظمها في هذا الكتاب أحسن القلائد باللسان النسيب الرائق، وعبارات الغزل اللائق. . ."². ويعترف ابن عربي بان وصفه ذاك لا يرقى الى مستوى حسنها وجمالها ورتبتها الوجودية. ولولا خوفه من التأثير على نفس السامع لانساق في وصف جمالها المادي.

فمن خلال النظام وجد ابن عربي المرأة التي يحبها ويحب الله من خلالها، فمن خلال جمالها عرف ابن عربي كيف يعود بالفتنة في النساء الى ربه وإلى نعمة الحب الإلهي،

¹ - خميسي، ساعد: ابن عربي، المسافر العائد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف ص 149.

² - ابن عربي، محي الدين، ترجمان الأشواق، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1961م ص 8-9.

والإفتتان بجمال المرأة ليس إفتتاناً جسدياً وإنما بما يقرب المرء من الله من خلال إدراك التجلي الإلهي فيها، فحب المرء للجمال يجب أن يكون لحب الله لا لذات الشيء الجميل لأن هذا هو المدخل إلى الفتنة أما الخروج منها فيكون باستغلال ذلك الجميل بما يقربه من الله، يقول ابن عربي: "فصورة رجوعه إلى الله في محبتهم بأن يرى أن الكل أحب بعضه وحن إليه، فما أحب سوى نفسه، لأن المرأة- في الأصل- خلقت من الرجل.. . فينزلها من نفسه منزلة الصورة التي خلق الله الإنسان الكامل عليها، وهي صورة الحق، فجعلها الحق مجلى له، وإذا كان الشيء مجلى للناظر فلا يرى الناظر في تلك الصورة إلا نفسه، فإذا رأى في هذه المرأة نفسه بشدة حبه فيها وميله إليها رأى صورته"، وصورته على صورة الحق، وبالتالي فهو لا يرى إلا الحق" ولكن شهوة حب والتلذذ وصله، ففيها فناء حق بحب صدق... فاتحد بمحبوبه إلا أن قال: "أنا من أهوى ومن أهوى أنا"¹، وإذا حدث أن إنحرفت العلاقة بين الرجل والمرأة عن هذا المسار، وكانت للذة آنية لا تقرب من الله ولا تحقق الشهود، فتلك هي الفتنة في النساء والمال والولد والجاه، لكن إذا أحسن الإنسان التعامل مع هذه الفتن الأربعة بما يقرب من الله صارت نعماً.

إن العلاقة بين الرجل والمرأة في مسألة الحب ترتبط بالأصل الذي كانت عليه المرأة، فحب المرأة للرجل يدخل في دائرة أنه أصلها وحب الرجل للمرأة يبرره أنها جزء منه، وعليه كلاهما يرى نفسه ويحب ذاته من خلال النظر في الطرف الآخر، إنها المرأة التي تعرف كل منهما للآخر، هذه المرأة يعرف المرء فيها نفسه ويرى فيها الحق متجلياً فيعرفه لكونه هو والآخر (المرأة والرجل) مخلوقين على صورته، فيشكلان بذلك مع الإنسان الكامل. وما ينجر عن علاقة الرجل بالمرأة من ظهور الولد كأطراف في نظرية التثليث الأكبرية، التي تكمن في عالم الرجل والمرأة انطلاقاً من النكاح، وهو "إتحاد عنصريين لإنتاج ثالث في عالم العناصر، وهو في عالم الأرواح التوجه الإلهي نحو الطبيعة وفتح صور العالم فيها بالأمر، وهو في عالم المعاني توليد النتائج من المقدمات.. . فالمرأة بذلك هي محل وجود أعيان الأبناء كما أن الطبيعة للأمر الإلهي محل ظهور أعيان الموجودات.

¹ - ابن عربي، محي الدين، الوصايا، ص 29-30.

فأمر بلا طبيعة لا يكون، وطبيعة بلا أمر لا تكون، ورجل بلا امرأة لا يكون، وامرأة بلا رجل لا تكون في مستوى أصل الخلق"¹.

إن هذا التثليث الناتج عن الثنائية أو الزوجية وميزتها في القرآن الكلمة الإلهية "كن" التي تظهر بها الموجودات، فالتزاوج والنكاح والتوالد عند ابن عربي مسألة وجودية طبيعية، أعطاهما ابن عربي بعدا ميتافيزيقيا يجمع بين الوجود والمعرفة والقيم، فتكون بذلك إلهية المصدر.

وعليه فعلاقة ابن عربي بالنظام كانت علاقة وجودية تكشف عن مبدأ الوجود الحقيقي وهو المحبة، فالمرأة في هذا المقام هي صورة للحق والعلاقة بينها وبين الرجل لا تخرج عن نطاق الحب الإلهي.

2. ابن عربي ومريم:

حب العابد والمتصوف للمرأة الزوجة يذكر الأستاذ الدكتور حامد طاهر في مقاله: مكانة المرأة عند ابن عربي متحدثا عن زوجة محي الدين ابن عربي انها مريم بنت محمد بن عبدون البجائي. وقد كانت امرأة صالحة، أنجبت له ولدين صالحين وابنة اسمها زينب، توفيت وهي صغيرة، وقد ساعدته زوجته على تكريس حياته للفكر الصوفي، كما أتاحت له الجو المناسب لتأليف ذلك الإنتاج الضخم (الفتوحات المكية) الذي انفرد به من بين أعلام التصوف الإسلامي جميعا، وقد توفيت في حياته.

ورد عن ابن عربي أنها كانت من العابدات، اللاتي انخرطن في الطريق الصوفي من طريق الرؤيا بالنام. وقد أخبرته أنها رأت في منامها شخصا كان يتعاهدها في أحلامها، ثم رأت رجلا خطر لها في عالم الحس، فقال لها: هل تقصدين الطريق ؟ فقالت: أي والله أقصد الطريق، لكن لا أدري بماذا ؟ فقال لها: بخمسة أمور: التوكل واليقين والصدق والعزيمة والصبر – وقد صدق ابن عربي لها على ذلك بقوله: إن هذا هو مذهب القوم.

كما ذكر عنها ابن عربي أنها كانت ممن تحقق بمقام مشاهدة الجن، وقد أخبرته أنها أبصرت واحدا، وصفت له حاله، فعلم أنه من أهل هذا الشهود، إلا أنها ذكرت عنه أحوالاً تدل على عدم قوته فيه وضعفه، مع تحقيقه بهذا الحال.

ومن الملاحظ أن ابن عربي بعد انخراطه في طريق التصوف، زهد في معاشره زوجة عملاً بنصيحة شيخه (المغاورى)، التي سمعها من أحد تلاميذه، والتي ينهى فيها عن

¹ - حسين الصديق: مفهوم المرأة في فكر ابن عربي، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن إتحاد الكتاب العرب، دمشق 1420هـ - 2000م، السنة العشرون، العدد 80.

معاشرة الزواج. ولم يقبل عليها - بعد ذلك - إلا امتثالاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم في أمره بإعطاء المرأة حقها من المعاشرة الحسنة. هذا التصور-عدم معاشرة الزوجة- نجده في التصوف الاخلاقي الذي يتبنى التصور الفقهي التقليدي للمرأة كرمز للفتنة والغواية وكعقبة امام بلوغ الولاية والصالح ويعتبر التعلق بالمرأة -حتى وان كان ذلك بطريق شرعي أي الزواج- مرادفاً للانغماس في الدنيا. وقد نظر بعض الصوفية الى الزواج كعائق امام بلوغ الترتي الروحي. وبالتالي تكون المرأة كائناً سلبياً ينبغي الابتعاد عنه لتحقيق الكمال. لكن التصوف الفلسفي يقوم على تصور مخالف للتصور الفقهي التقليدي الذي يختزل عنصر الانوثة في الغواية وابن عربي ممن يذهب الى القول بان الانوثة ليست مجرد كينونة متفردة ترتبط بشخص محدد-هو المرأة-ولكنها عبارة عن مبدا كلي يساهم بشكل مباشر في الحياة الكلية او الكونية.

3. ابن عربي ورابعة العدوية: حب العابد والمتصوف للمرأة العابدة (المتصوفة)

لقد كانت رابعة العدوية¹ ممن شكلوا نقطة تحول في التصوف، حيث تم الانتقال من مستوى العبادة والزهد للذين قوامهما الخوف من النار والطمع في الجنة إلى مستوى التصوف القائم على الحب الإلهي لذاته، هذا التصوف اقترن بمفهوم الفناء ووحدة الوجود.

لقد كان لرابعة العدوية السبق في التأسيس لمذهب المحبة ببعدها الإلهي فقط، فقط كان قلبها ممتلئ بحب الله، ولم يبق أي موضع لأي كان، يروى أنها توجهت إلى "رياح ابن عمرو القيسي" وهو المعروف بشدة ورعهوب"المتخشع البكاء المتضرع الدعاء"²، لما رآته يقبل ولده ويضمه إليه فقالت له: "أتحبه؟ قال: نعم! قالت: ماكنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه... فصرخ رياح وخر مغشياً عليه ثم أفاق وهو

¹ - هي رابعة بنت إسماعيل العدوي تكنى بامالخير، عابدة مسلمة تاريخية واحدى الشخصيات المشهورة في عالم التصوف الاسلامي وتعتبر مؤسسة احد مذاهب التصوف الاسلامي وهو مذهب الحب الالهي. لا يعرف عن حياتها إلا القليل، اختلفت في تحديد تاريخ وفاتها بين 135 و180، و215هـ، يقع أحياناً الخلط بينها وبين رابعة البدوية دفينه بيت المقدس، تميزت بالتنقل في حياتها من النقيض إلى النقيض، أي من حياة المجون إلى حياة الزهد والورع، وهو ما قد يفسر قوة حال ومقام التوبة الذي إرتقت به إلى حال ومقام المحبة وهي النقطة التي غيرت وطورت بها التصوف.

يمكن مراجعة ما يتعلق برابعة العدوية في: ابن الكثير: البدايات والنهاية، ج 10 ص 168، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد مصطفى وعبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 م، ج 7، ص ص 327-328.

² - الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405 هـ / 1985 م، ج 6 ص 195.

يمسح العرق عن وجهه وهو يقول رحمة منه تعالى ذكره ألقاها في قلوب العباد للأطفال¹.

وقد علق ابن عربي على حب رابعة العدوية لله بأنه: "حب امرأة"، فعنصر الأنوثة فيها زادها قدرة على التعبير عن حياها وتعلقها بمحبوبها إلى حد الفناء، فينعدم كل موجود ماعدا الحبيب، تقول رابعة العدوية في أبيات نظمها:

عرفت الهوى منذ عرفت هواك	***	واغلقت قلبي عن سواك
وكنت اناجيك يا من ترى	***	خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حين.. حب الهوى	***	وحبا لأنك أهل لـذلك
فأما الذي هو حب الهوى	***	فشغلي بذكرك عن سواك
وأما الذي أنت أهل له	***	فكشفتك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	***	ولكن لك الحمد في ذا وذاك
احبك حين.. حب الهوى	***	وحبا لأنك أهل لذلك
واشتاق شوقين. شوق النوى	***	وشوق لقرب الخلي من حماك
فأما الذي هو شوق النوى	***	فمسرى الدموع لطول نواك
أما اشتياق لقرب الحمى	***	فنار حياة خبت في ضياك
ولست على الشجواشكو الهوى	***	رضيت بما شئت لي في هداك ²

ويعلق ابن عربي على هذه الأبيات قائلا: "يقال إن هذا قول رابعة العدوية المشهورة التي أربت على الرجال حالا ومقاما، وقد فصلت وقسمت -رضي الله عنها- وهو أعجب الطرق في الترجمة عن الحب"³، وقد صنف ابن عربي رابعة العدوية في سلم العرفان، ووضعها في درجة تعلو درجة الرجال في الأحوال أو المقامات.

إن استفادة ابن عربي من رابعة العدوية كان خاصة فيما يتعلق بمقام المحبة، فتموضع رابعة في الحب الإلهي يؤكد بأن المرأة في التصوف الأكبري لا تقف عند حدود كونها محلا لانفعال بل في شهود الحق فيها، بمعنى أن قيمتها في التصوف ليس فقط من باب جمالها وعشقها، بل لها في التصوف مكانها كعارفة وسالكة لطريق الكشف، بمعنى أن لها إمكانية بلوغ الكمال مثل الرجل. فإذا كان بينهما تفاوت في الدرجات والرتب بحسب الحال والمقام، فإن لا اختلاف ولا تفاوت بينهما في إمكان بلوغ الكمال، يقول ابن عربي:

¹ - المصدر نفسه ج 6 ص 192.

² - الكلاباذي، أبو بكر محمد: التعرف لمذهب أهل التصوف، تقديم وتحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، 1407هـ/1986م ص 110.

³ - ابن عربي، محي الدين: الفتوحات المكية، دار صادر ج 2 ص 359.

إن النساء شقائق الذكران	***	في عالم الأرواح والأبدان
والحكم متحد الوجود عليهما	***	وهو المعبر عنه بالإنسان
وتفرقا عنه بأمر عارض فصل	***	الإناث به من الذكران
وإذا نظرت إلى السماء وأرضها	***	فرفت بينهما بلا فرقان
أنظر إلى الإحسان ¹ عينا واحدا	***	وظهوره بالحكم عن إحسان ²

إن التجليات الإلهية بأكمل شهودها في تصور ابن عربي تكون في المرأة، بحكم مقام "الواحدية" الذي لها والذي يجعلها أقرب من الصفات الإلهية، بحكم أنها محل لها، ثم إنها تحتوي على الرحم محل التكوين والخلق، والرحم في الفكر الأكبر له علاقة بصفة الله واسمه "الرحمن"³.

وعليه فإن المرأة في تصور ابن عربي يمكنها بلوغ درجة الإنسان الكامل، بل إنه فصل في المسألة وقال بأنها مثل الرجل يمكنها أن تبلغ أقصى درجات التصوف وهي درجة "القطب الغوث"، يقول: "... وهذه كلها أحوال يشترك فيها النساء والرجال، ويشتركان في جميع المراتب حتى في القطبية"⁴. هذه الدرجة تعطي للمرأة إمكانية تملك الكون وخلافة الله بأسمائه وصفاته ونيابة الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته، ونيابة آدم وحياسة الحقيقة المحمدية ذلك لأن للإنسان الكامل رمز ومفهوم حسي ونموذج معنوي، أما الرمز فهو آدم عليه السلام وأما المفهوم فهو محمد صلى الله عليه وسلم وأما النموذج المعنوي فهو: الحقيقة المحمدية⁵.

الخاتمة

وأخير يمكن القول بأن دراستنا لموضوع المرأة وعلاقة ابن عربي بها مرتبط بتتبع سيرة فكر ابن عربي وحقيقة تجربته العرفانية التي تنتهي إلى أن المرأة إنسان واختلافها عن الرجل عرضي، وأن بإمكانها بلوغ الكمال، وأن السفر في جمالها ينتهي إلى بلوغ الجمال الإلهي وإدراك الجمال الإلهي متجليا فيها، إن المرأة هي وجه من أوجه رمزية الخيال الذي

¹ - بعد مقام الإحسان عند الصوفية من أهم المقامات وأجلها حتى أنه المرادف في كثيرا من الأحيان لكلمة التصوف، وهو مستمد من حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إجابة على أسئلة جبريل، منها ما الإحسان؟ قال صلى الله عليه وسلم: " أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك" ابن خزيمة، أبو بكر السلمي: صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي الكتب الإسلامي بيروت 1390 هـ / 1970 م، كتاب الزكاة ج 4 ص 5.

² - ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر ج 3 ص 87.

³ - ابن عربي: الفتوحات المكية، دار صادر، ج 3، ص 87-88.

⁴ - المصدر السابق، ج 3، ص 89.

⁵ - خميسي، ساعد: ابن عربي، المسافر العائد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف ص 211.

يصعد بالمحسوس إلى عالم المعاني المجردة وينزل بالمجردات في قوالب حسية يطمئن إليها الإنسان. فالامر يتعلق لدى الصوفية من امثال ابن عربي بمحاولة لاتخرج عن مجالها الديني _الصوفي لاعادة تقييم علاقة الانسان بمسالة الانوثة كمسالة ثقافية اكثر مما هي مسالة اجتماعية.

الببليوغرافيا:

1. ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 2، دار صادر، بيروت
2. _____، ترجان الأشواق، دار صادر، بيروت 1966
3. _____، ترجان الأشواق، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1961
4. خميسي، ساعد: ابن عربي، المسافر العائد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف
5. حسين الصديق: مفهوم المرأة في فكر ابن عربي، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن إتحاد الكتاب العرب، دمشق 1420هـ-2000م، السنة العشرون، العدد 80
6. الأصهباني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405 هـ / 1985م
7. الكلاباذي، أبو بكر محمد: التعرف لمذهب أهل التصوف، تقديم وتحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، 1407هـ/1986م
8. Louis Althusser: Idéologie et appareils et Appareils idéologiques d'état- in: Positions-Paris- Editions sociales- 1976